تقديم

دراسة «الإنسان» من أى جانب، وعلى أى مستوى، وتأمل ما يقول وما يفعل، شىء نافع مثمر، وأحيانا.. ممتع. وحينئذ نظفر بسلسلة لا تنقطع ولا تنتهى من الحكايات، والنماذج، والمعانى، والحكم والمشاهد والألوان.. من الواقع، لا من الخيال، لأن كل فرد فى سماته، وصفاته، وقدراته، ونشاطاته، أو إبداعاته، وحتى ضعفه، وإخفاقاته... فرد فريد. وإنها لحكمة بالغة أن يشير الخالق سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى فى سورة المدثر: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدا﴾.

هذا المخلوق ـ الإنسان ـ يستخدم فى مواجهة ضغوط ومصاعب الحياة ـ الطبيعية والمفروضة ـ ذكاءه، وإرادته، وجهده، بقدر رغائبه، وأهدافه، وطموحاته، فإن هو أحسن، وأتقن، وأجاد؛ سَعِدَ غالبا، وأسعد.. وما أكثر الذين حققوا ذلك من أشخاص عاديين أو مرموقين، إذ لا يخلو «إنسان» فى مجال ما، من قدرة على السعى أو الإنجاز، والمتعة، أو الإمتاع.. فإن هو زل وضل؛ شقى وأشقى، وكان ندمه أشد وأبقى. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى.. فإن الذين يظنون أن حقبة من الزمن كانت وضاءة بالخير، مزدهرة بالعدل، متوجة فى تألق بالجلال والمجد يمكن أن تعود كما كانت وبنفس الصورة، والقدر، والقيمة، والعمق، هم مفرطون حقا فى الأمل، بل واهمون... لأن كل شىء فى هذا الوجود لا يعود ولا يتكرر أبدا مرتين متطابقتين، وهذه أيضا قدرة إلهية خلاقة مبدعة معجزة، والأسباب كثيرة، والحجة قائمة نظريا وعلميا، لمن فكر جيدا وتدبر.

إذنْ، فكل ما تأتى به الأيام، بل الساعات واللحظات، فيه جديد، ومن الطرافة أو العبرة مزيد.

وفى المواطن الصعبة، ومواقف الشدة، تظهر قدرة الإنسان ـ رجلا أو امرأة ـ على مواجهة التحدى، ومغالبة الخطر.. ولو بالفكاهة على البداهة.

فى زمن الخليفة المأمون، ادَّعى رجل صنع الخوارق والمعجزات، زاعما أنه من أهل «الكرامات»... فاستدعاه المأمون وسأله: هل تُرينا معجزة؟ فقال: نعم. إنى أطرح لكم حصاة شديدة الصلابة فى ماء، فتذوب فى الحال. فقال بعض الحاضرين: تلك حيلة. نعطيك حصاة من عندنا، واجعلها تذوب. فقال الرجل: عجبا! أنتم لستم أشد دهاء من فرعون، ولا أنا أفضل منزلة من موسى (عليه السلام). إن موسى (عليه السلام) ألقى عصاه أمام فرعون وقومه؛ فصارت ثعبانا، ولم يقل له فرعون: هذه حيلة.. سنعطيك عصا من عندنا!.. فضحك المأمون ونصحه.

وتلك صور شتى ـ فى هذا الكتاب ـ من الحياة المعاصرة، تجمع بين الطرافة والحصافة، والكفاح والنجاح، أو العثار المهلك الضار. والسعيد من استزاد الناس من خيره، والعاقل من اتعظ بغيره.

وتمضى الحياة فى مسارها المقدور، بالناس، والحب، والإبداع، والتحدى.. والأمل.. إنها حقا حفل حافل...!.

فؤاد شاكر